مفادها أن اليهودية الغربية ما كانت لترغب في استعمار فلسطين بمثل ذلك الاسلوب ، وعليه فان طلب بالمرستون يبرز كأداة في يد البريطانيين لتأمين مناطق نفوذ دينية يهيمنون عليها ويمارسون فيها تعزيز رغبة اليهود تجاه « اعادة استيطانهم» في الاراضي المقدسة . وفي هذا الصدد يقول ليونارد شتاين : « كان يهدف بالمرستون ، من ضمن سياسته ، الى تشجيع اليهود بالهجرة الى فلسطين من كافة انحاء الامبراطورية العثمانية ، والى الحصول على حماية من بريطانية العظمى بنفس الطريقة التي يحصل فيها الارثوذكس على حماية من روسية » (٣) وبعد العام ١٨٧٥ ، اخذت هذه السياسة تشق طريقها باتجاه تحركات ملموسة . فقد شكلت الثورة القصيرة الاجل في بلجارية في العام ١٨٧٦ نقطة التحول في السياسة البريطانية تجاه الامبراطورية العثمانية . لقد بدأ تلك الثورة ، التي سرعان ما انتهت ، جماعات ثورية في جيورجيفو وبوخارست ، الا ان السلطات التركية اخمدتها بوحشية وهي في مهدها ، فذبحت من ١٢٠٠٠ الى ١٥٠٠٠ ثائر . ازاء تلك المذابح اهتز الرأي العام البريطاني ، ومنذ ذلك الوقت تناست بريطانية كافة تودداتها تجاه السلطة التركية ، لاسيما حين ولت حكومة المحافظين وتسلم الوزارة حزب الاحرار بزعامة جلاوستون في العام ١٨٨٠ ، التي عملت على مواجهة نقيضها المتجسد في استبدادية عبد الحميد الثاني بعد العام ١٨٧٧ ، لا بل ان التوتر في العلاقات بين البلدين ازداد حين حدد عبد الحميد موقفه المعادي للغرب .

كانت حرب البلقان في اثناء ذلك تستهلك الكثير من الخزينة العثمانية : فالجيش يحتاج الى مصاريف جمة ، اضافة الى ان بريطانية كانت تقدم قروضا وتحتاج الى التعويض عنها . وهناك العجز المتزايد في ميزان المدفوعات بالاضافة الى مشاكل الامبراطورية العثمانية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية (٤) . لقد عجزت اصلاحات عبدالحميد عن مجابهة الاوضاع السائدة آنذاك بسبب نمو القوميةالتركية — التي قضت عليها التدخلات الاجنبية وهي فيمرحلتها الجنينية — مما دفعه الى استبدال التنظيمات الثورية بسلطويات تحمي عرشه . وفي نهاية المطاف ، انشئت هيئة قضائية دولية في العام ١٨٨١ للبث في قضايا الديون المستحقة على الامبراطورية العثمانية ، ومن البديهي ان تؤدي هذه الخطوة الى تأزيم اعمق في العلاقات التركية — الانكليزية . وفي الوقت نفسه ، ومع ادراك ديزرائيلي للحاجة الىالاستمرار فيدعم ، الامبراطورية، الا انه كان مقتنعا بان الاهتمام يجب ان ينصب في تلك المرحلة على الحفاظ على المصالح التجارية البريطانية (مثل استثمار قناة السويس) والمصالح السياسية الاستراتيجية (العمل على مجابهة الاحتلال الفرنسي لتونس عام ١٨٨٢ ، والنفوذ الروسي في البلقان ، والنفوذ الالماني المتزايد في تركية) ، فطالب عبد الحميد باعطائه جزيرة قبرص ذات الموقع الاستراتيجي ، وفعلا حصل عليها بعد تحذير وتهديد السلطان . كانت الهوة بين بريطانية والامبراطورية العثمانية ازدادت اتساعا ، عقب فشل الثورة البلجارية ، نتيجة اربعة عوامل رئيسية ، هي : الاشراف الدولي على الخزينة العثمانية ، فشل الاصلاحات الداخلية ، ازدياد الجور ومضايقة الاجانب في الامبراطورية ، وآخيرا فقدان جزيرة قبرص . الا ان العامل الرئيسي والحاسم جاء مع اندلاع الحرب الروسية — التركية في العام ١٨٧٧ التي انتهت بمعاهدة سان ستيفانو (١٨٧٨) . ومع ان الحرب حققت مكاسب بسيطة للروس ، الا ان روسية تخبطت في ضائقة مالية وتزايد فيها الضغط الشعبي مناديا بالغاء مقررات مؤتمر برلين ، وتخلفت بريطانية عن تقديم يد العون الى تركية بسبب ما نشأ بين الدولتين من تجاف اثر الثورة البلجارية . وعليه فان احتلال بريطانية لمصر في العام ١٨٨٢ انهى الاعتبار البريطاني لاستقلالية ووحدة الامبراطورية العثمانية ، وحين التفت